

تفسير القرآن وفاعلية التلفظ: مناويل تداولية في الخطاب

Interpretaion of Qur'an and the effectiveness of pronunciation. Pragmatics terms in the discourse

الرحموني بومنقاش *Boumengache rahmouni
النقد الأدبي جامعة محمد مين دباغين - سطيف2

boumengach@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ القبول: 2022/11/26

تاريخ الإرسال: 2021/04/22

ملخص: يتحقق البحث في فرضياته الكبرى من شمولية الرؤية التداولية لمختلف أنواع الخطاب، وخاصة خطاب تفسير القرآن الكريم؛ حيث يحاول نقل الإطار النظري للدرس التداولي إلى خطاب ابن جرير الطبري التفسيري، فلنا أن إمكانية التحقق تحتاج إثباتا عمليا، وأن الخطاب وإن كان بينيا متعدددا قد يكتفي بخاصية التواصل ليكون ناجحا.

ويكون التلازم الحاصل بين الخطاب التفسيري والتداولية مسلكا هاما لإيضاح الرؤية المنهجية للملفوظ عموما والتفسيري خصوصا، وللفلسفة العامة والطريقة الشاملة التي ينظر بها المرسل لقضايا الكون والإنسان والمجتمع، ولكيفية تلقف المرسل إليه هذا الخطاب ضمن ما يعرف بالسياق.

الكلمات المفتاحية: تفسير القرآن؛ التلفظ؛ التداولية؛ الخطاب

Abstract: The research in this major hypotheses based on the pragmatics vision of different types of discourse, particularly the speech of the interpretation of the Qur'an, where theoretical framework of the pragmatics lesson to Ibn Jarir's discourse. he thought that the possibility of verification needed practical proof, the discourse even though it is multi-faceted may be content with communication to be successful

The correlation between interpretive discourse and pragmatics is an important course to clarify the methodological view of the field in general and the interpretation of it in particular, it has general philosophy and the overall way in which the sender looks at the issues of man, the society, and how the addressee receives this letter within what is known as context.

Keywords: Interpretation of Qur'an; pronunciation; Pragmatics; discourse

1. مفتتح: في الافتراضات الكبرى

تضع الورقة أربعة افتراضات رئيسية في تداولية التفسير، وهي افتراضات شكلت ركائز دار حولها الخطاب المفسر للقرآن الكريم؛ أولها التأويل التداولي بوصفه استعانة بالوقائع الثقافية والمعرفية للمفلوظ في مساره التفسيري. وثانيها استراتيجيات الحجاج بعدها استدلالا براغماتيا لإثبات صحة معاني محددة دون غيرها، ثم ثالثها استدعاء المقام والسياق بشقيه الحالي والمقالي، وأخيرا استناده على القصدية في التأليف وفي تبيان الدلالات والمعاني.

أولا: شكلت التداوليات مقارنة لتحليل الخطاب وقرائه في ضوء مراد المتكلم ومقصده؛ فهي تعتمد على «القصدية والمرادية» في النص؛ انطلاقا من أن المؤلف له أهمية كبيرة في تفسير النص؛ لا يمكن تجاهله، فهو المنتج والمبدع والمالك الحقيقي له؛ ومن ثم فهو يشكل مرآة لنصه من عدة نواح: نفسية واجتماعية وتاريخية وسياسية. إن عملية قراءة المدونة التفسيرية قراءة تداولية تتحكم فيها خلفية معرفية تتعلق بمايلي:

- معرفة لغة الخطاب التفسيري القائم أصلا على تفسير لغة القرآن.
- التأكيد على استخدامات هذه اللغة في سياقات مختلفة.
- ربط النص المفسر بالنص المفسر الذي يعطيه مادة وجوده.

والنظرة الشمولية للنص من سمات المنهج التداولي، وهي محققة عند المفسرين وبالخصوص إمامهم ابن جرير الطبري؛ إذ يرى أن نصوص القرآن والسنة ينبغي أن تعامل على أنها نص واحد مترابط أجزاءه، وينبغي ألا يفسر نصّ بمعزل عن بقية النصوص التي تتناول الموضوع، ثم إن الفهم السليم للخطاب، أيا كان هذا الخطاب، لا يقاس بفهم معنى الجمل فقط، بل بالإدراك السليم لمراد المتكلم منه، وهذا تابع عند المفسرين من حرصهم على بلوغ تفسير سليم لمراد الله ورسوله من القرآن والسنة.

إن فهم النص يتم وفق السياق الذي ورد فيه، ولا يمكن تفسيره بمعزل عن السياق، وهذا ما دأب الطبري على تبيانه، فالسياق هو الذي يجعل من الألفاظ جزءا من اللغة. كما لا يمكن فهم النص دون استخدام القدرات العقلية للمخاطب؛ وهو ما وضحه الطبري أيضا ضمن مراتب البيان، لأن اللغة مؤسسة على أمور مشتركة بين المتخاطبين مثل المعارف الإدراكية والأعراف اللغوية.

ولعل التمثيل بخطاب التفسير لتحديد المفاهيم النظرية والإجرائية في تطبيق هذه المستجدات، قد يقدم رؤية تفيد الدارسين والمهتمين بالحقل في تحليل الخطابات الأخرى، ذلك أن الكشف عن الأعراف العلمية الخاصة بالتفسير يسهم في فهم خصوصيات باقي الخطابات وفق مبدأ المغايرة والاختلاف. فالتفسير «يختص بإيضاح هذه الكيفية من العلاقات اللفظية التي يتضمنها النص، فإن لم تكن هذه الكيفية متخيلة لدى الإرادة التصورية للذهن فإن الأمر يخرج عن حد التفسير وإن دل على حمل اللفظ الظاهر على حقيقته أو على غيره»¹.

وعند التساؤل: لماذا خطاب ابن جرير الطبري في جامع البيان عن تأويل أي القرآن بالذات؟ يكون الجواب على لسان الإمام الذهبي وهو يتحدث عن الطبري: «كان ثقة، صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات، وغير ذلك»²، وأما خطابه التفسيري فقد قال فيه الأسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن كثيراً»³.

ثم إن خطاب الطبري يتخذ مظاهر شتى تعكس التنوع الحاصل في نتاجه التفسيري وداخل ثقافته الشخصية الواسعة (خطاباً دينياً/ خطاباً شعرياً/ خطاباً نقدياً/ خطاباً فلسفياً عقدياً/ خطاباً تربوياً.....)، فهو يقدم نموذجاً هاماً لخطاب التفسير في الثقافة العربية، وهو نموذج يظهر فيه التصور المعتمد في تفسير النص القرآني، وفي تعامل المفسر معه.

وفق هذه الرؤية يمكننا الزام التفسير بأسئلة التداولية الكبرى، ومحاولة النبش في سؤال التداولية: من يتكلم؟ مع من يتكلم؟ وكيف يتكلم؟ ماذا يريد المتكلم أن يقول؟ ليكون السؤال في خطاب التفسير: كيف استقام التفسير خطاباً تداولياً؟ أو كيف يمكن النظر إلى الخطابات التفسيرية بوصفها رؤية تداولية لها قواعدها ومبادئها؟ فكان من مقتضيات هذا السؤال مجموعة فروض فرعية: كيف نفهم الخطاب التفسيري في ضوء التداوليات المعاصرة؟ كيف نحدد مقصدية تفسير الطبري بعد أن قدمت التداولية

¹ يحي محمد، منطلق فهم النص دراسة منطقية تعنى ببحث آليات فهم النص الديني وقبلياته، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص: 48.

² م حمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، 2012، ص: 312.

³ ابن تيمية، مقدمة في التفسير، مطابع الرياض، السعودية، ط 1، 1381 هـ، ص: 98.

للخطاب مقارنة للنسق اللغوي المحدد لمقصدية ذلك الخطاب؟. وهي إشكاليات لها في العموم اتجاهان: اتجاه يعنى بآليات التفكير التداولي التي وظفها الطبري في تفسيره، واتجاه يعنى بالمسلك التداولي لقراءة خطاب الطبري؛ أي الرؤية التداولية التي يقدمها البحث لفهم خطاب ابن جرير.

3. الطبري والتفسير من الشك إلى الإقرار:

وقد اقتضى النظر التداولي في الخطاب التفسيري، تقلبيه بوصفه نصا موسوعيا استثمار النص القرآني المهيمن على النسق الثقافي العربي في بناء خصوصيات خطابية وإبستمية، ظل بها خالدا، مما استدعى التداوليات المدمجة أو التداوليات العرفانية في معالجة نص الطبري، بوصفها أيضا معالجة شمولية للنص. لأن التداوليات المدمجة لا تشيء مادة الدراسة في جانب معرفي وعلمي واحد، كالنظر فيها بوصفها لغة (التداوليات اللسانية)، أو نصا له انتماء ثقافي واجتماعي (تداوليات اجتماعية) وغيرها، بل هي محاولة للجمع بين كل هذه التخصصات.

لذلك، وبناء على ما سبق، يحقق خطاب التفسير غاية واحدة هي الكشف عن الشروط التداولية والتواصلية التي تسمح له بمجاراته من الخطابات، ضمن إطار المزج بين التفسير وغيره من المعارف، وذلك حتى يتأتى لهذا الخطاب أن يكون ذا فعالية ومردودية. ومع ذلك « وفي كل التفاسير يمكن أن نلاحظ انزياحا بين النص الأصلي ونص التفسير. وهذا كي لا يحصل ذوبان النص في نصوص تفسيراته... كما يمكن أن نقول إن نص التفسير يتخذ من النص الأصلي علة لإنتاج خطاب جديد. ويعرف المبرر prétexte بأنه مجموع شروط الإنتاج التي تحيط بالعمل وتعطيه معنى... يقترب في مفهومه من مفهوم السياق contexte الذي يلعب أيضا دورا حاسما في تحديد شروط إنتاج النص وكذا في تلقيه وتداوله»¹.

وضمن الأبعاد التداولية في خطاب التفسير، تتوثق عرى العلاقة بين الدرس التداولي وهذا النمط الخطابى، أو لنقل استعراض تفاصيل مواقف التداولية بشأن التفسير، وإبراز المضمرات التي تشترك فيها التداولية بوصفها آلية لتحليل الخطاب، والتفسير بوصفه ملفوظا خطابيا، وقد نبين هنا تحديدا قيمة الاستعانة بالتداوليات في قراءة

¹ حسين خمري، نظرية النص، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص:10.

أنواع مختلفة من القول اللغوي، خاصة وأن خطاب التفسير يتميز بمبدأ القصدية والتفاعلية والسياقية والحجاجية، الأمر الذي يستحيل معه التفسير إلى مجرد خطاب ساكن لا يقبل التقلب والفحص. وهيصفة تتميز بها الثقافة العربية كمصدر لإبداعيتها، فالمعروف أن: « الثقافة العربية تتمحور حول "نص - أم" يمكننا النظر إليه بوصفه المولد لعدد لا نهائي من النصوص، هذا النص هو القرآن. وأقرب النصوص إلى القرآن وأكثرها التصاقا به هي النصوص التفسيرية بوصفها اشعاعات مباشرة له وتنوعات عليه»¹.

على أن التفسير هو الذي ما فتئت خصوصياته ومميزاته تستمر وتتثبت بين باقي الخطابات، وأنه بمقتضى ذلك يرفض الانحصار في تيمة ناجزة تصدق عليها كل تجريدات وقيصريات المنهج أو تطبيقاته، لذلك افترض البحث اقترابا من التفسير والتداولية، حتى يسمح له بالإفصاح عن غيريته، ومحاورته بما يضمن انخراطه الإيجابي في حقل تحليل الخطاب، وبما يسمح لنا توسيع النظر إلى نصوص التفسير واستثمار ما فيها.

إن القصدية بعدها مركبا تداوليا مفترضا لخطاب التفسير، هو إحالة على التأليف القصدي الواعي، يحمل رسائله الخاصة وغاياته المنشودة، وقد اندرج هذا في إطار تداولية الخطاب التي تبحث في مقاصد القائل وأهدافه من رسالته اللغوية. وتشمل منظومة استعمال المتكلم هذه « الحالات الشعورية، الاعتقادات، الرغبات، المقاصد، والادراكات، وكذلك ضروب الحب والمكراه، والمخاوف والأمال بما في موحيات العقل نحو الأشياء أو الحالات الفعلية في العالم»².

لقد صنفت العلامات من حيث دلالتها إلى ثلاثة أصناف: العلامات العفوية، العلامات العفوية المغلوطة والعلامات القصدية. هذه الأخيرة تمثل وقائع تزخر بإشارات وضعت قصدا لتوفيرها، ولا تبلغ هذا الهدف إلا باعتراف مسبق بها، فتكون القصدية

¹ سيزا قاسم، توالد النصوص وإشباع الدلالة تطبيقا على تفسير القرآن، ضمن: الهرمينوطيقا والتأويل، مجموعة مؤلفين، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط2، 1993م، ص:33.

² جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع - الفلسفة في العالم الواقعي. ت: سعيد الغاني، منشورات الاختلاف. الجزائر، 2006. ص /

التواصلية الواعية شرطا حتى يصير الدليل أداة القصصية ولهذا يمكن القول أن موضوع السيميولوجيا هو العلامات القائمة على القصصية التواصلية¹. وبعد النظر في خطاب ابن جرير، يظهر جليا أن مقدمة التفسير قد أوضحت نيات المفسر وقصدياته، فكان البيان وإعجازه قطب الرحى في تفسيره، مبينا أن كلام الله معجز في بيانه، وأن البشر يتفاوتون فيه، ولما كان الحال كذلك تبني الطبري قصد الإفهام/الإبانة وما يخفيه في ثناياه من رؤى تداولية، كالمعرفة المشتركة وغيرها، ثم ما طالعنا الطبري به من قصصية تداولية بامتياز هي فكرة النفعية ومبدأ الإفادة في الخطاب.

إن منطلق فكرة البيان في تصور الطبري إلهي المصدر، ذلك أنه وسيلة موصلة، وطريق فعال لتحقيق حاجات الإنسان في المجتمع، والتعبير عن أفكاره ومشاعره وإرادته، وبلوغ أهدافه الدينية والدنيوية، يقول الطبري في مقدمة تفسيره: «إن من أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده، وجسيم منته على خلقه، ما منحهم من فضل البيان، الذي به ضمائر صدورهم يبينون، وبع على عزائم نفوسهم يدلون، فذل به منهم الألسن، وسهل به عليهم المستصعب، فبه إياه يوحدون، وإياه به يسبحون ويقدمون، وإلى حاجاتهم به يتواصلون، وبه بينهم يتحاورون»².

لقد جعل الطبري من خلال هذا النص البيان بما أنه نعمة إلهية، مكونا أساسيا في حقيقة الإنسان، فبدونه تعطل كثير من طاقاته وفعالياته ومواهبه، ونجد الخطاب القرآني نفسه يقرن كلمة البيان بالإنسان في غير ما موضع من القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾⁽³⁾. وقد فسر الإمام الزمخشري هذه الآية بقوله «...ثم ذكر ما تميز به عن سائر الحيوان من

¹ عبد الهادي ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط 1، 2004م.

ص:186.

² أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة مصر، ط (2) د ت/1/8.

3 الآية: (1-2)/الرحمن.

البيان وهو المنطق المفصح عما في الضمير»⁽¹⁾، فما يميز الإنسان عن الحيوان هو البيان والنطق الفصيح.

وقد كانت فكرة البيان في خطاب الطبري مهيمنة عليه في كل ما فسره من الآيات القرآنية، وهذا دليل على قصدية الإرادة المضمرة في خطابه، قصدية إيضاح الإعجاز البياني للخطاب القرآني، ذلك أن القرآن الكريم «معجز كله بلفظه ومعناه، يحمل في ذاته دليل إعجازه، راسما القانون الإنساني الأعلى من خلال فصاحة ألفاظه، وإصابة معانيه، وجمال إيقاعه، وبعد ايحاءاته، مما جعل بلاغة القرآن" بلاغة أسلوب تهر العقول، وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب»².

وكانت استراتيجيات الحجج التداولي في خطاب الطبري دعامة لما جاء في قصديات الطبري التفسيرية، فالحجاج «يفرض على المُخاطَب نمطًا معينًا من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار. والقيمة الحجاجية لقول ما، هي نوع من الإلزام تعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميته واستمراره»³.

يمثل الحجج في جامع البيان استراتيجية تداولية، غايتها في العموم إقناع المتلقي بفهم الطبري وتأويله للآي، يفسر هذا تعدد أساليب الحجج في خطابه، بين الحجج الظاهرة من الخطاب والحجج المستفادة ضمنا من نصوصه، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾⁴ نجده يوظف الحجج التداولي على نحو يرجح به قراءة دون.

1 أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو الرمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998. 43/4.

2 رجاء بنت محمد عودة، الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم، مكتبة العكيان، ط1، 2003. ص: 17.

3 أبو بكر العزاوي، الحجج في اللغة، مجلة فكر ونقد، العدد61. ص: 2.

4 الآية 150 /البقرة

يوضح هذا قوله: « وأما قوله " إلا الذين ظلموا منهم " فإنهم مشركو العرب من قريش فيما تأوله أهل التأويل، ومعنى الكلام: لئلا يكون لأحد من الناس عليكم خصومة ودعوة باطلة، غير مشركي قريش، فإن لهم عليكم دعوى باطلة، وخصومة بغير حق، بقبلهم لكم: رجع محمد إلى قبيلتنا وسيرجع إلى ديننا فذلك من قولهم وأمانهم الباطلة، هي الحجة التي كانت لقريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن أجل ذلك استثنى الله تعالى ذكره الذين ظلموا من قريش من سائر الناس غيرهم، إذ نفى أن يكون لأحد منهم في قبيلتهم التي وجههم إليها حجة... ولم يكن في ذكر قوله بعد ذلك " إلا الذين ظلموا منهم " إلا التلبيس الذي يتعالى عن أن يضاف إليه أو يوصف به، هذا مع خروج معنى الكلام إذا وجهت " إلا " إلى معنى " الواو ". ومعنى العطف من كلام العرب، وذلك أنه غير موجودة إلا في شيء من كلامها بمعنى الواو إلا مع استثناء سابق قد تقدمها: سار القوم إلا عمرا إلا أخاك بمعنى إلا عمرا وأخاك..¹ ».

عمد الطبري من خلال هذا المسعى إلى بناء قراءته للتركيب في ضوء ما كان نقضه من قراءات اختلف أصحابها في وظيفة " إلا " وقد بنى المفسر احتجاجه على حجتين تاريخية ولغوية:

الحجة التاريخية وتبرز من خلالها صورة الطبري المؤرخ عالم الحديث المدقق للمعنى وملابسات النزول لذلك يوظف الخبر للخروج باللفظ من العموم " الذين ظلموا منهم " إلى الخصوص الدعوى الباطلة لمشركي قريش وخصومتهم للنبي بغير حق " لذلك يستشهد المفسر على هذا المعنى تاريخيا عندما يقول " حدثني موسى ابن هارون قال: حدثنا عن عمرو ابن حماد قال حدثنا أسباط عن السدي فيما يذكر عن ابي مالك وعن ابي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لما صرف نبي الله صلى الله عليه وسلم نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم كنتم كأهدى منه سبيلا ويوشك أن يدخل في دينكم فانزل الله جل ثناؤه فيهم ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون "

¹ جامع البيان، 250/2.

إن ذلك التدقيق المتناهي في سلسلة الإسناد والحرص على استيفاء ملابسات النزول يؤكدان مراوحة الطبري في الاحتجاج بين النص وخارج النص مادام في المنقول حديث كان أم واقعة ما يساعد على ضبط التركيب وفهمه.

الحجة اللغوية النصية: وتنعقد أساسا على الإستثناء المتصل الذي يكون فيه ما قبل حرف الاستثناء من جنس ما بعده. وقد عمد المفسر إلى فك البنية الإستثنائية التامة عن البينة الإستثنائية المنجزة.

وعلى هذا النهج الدقيق سار الطبري في اقتفاء دلالات معنى المفردة في السياق. بوصف السياق آلية تداولية، وفي الوقت نفسه ظاهرة تفسيرية استند إليها أغلب المفسرين في فهم آيات القرآن، ومنهم الطبري الذي جعل من السياق بشكله التداولي المدمج لكل أقسامه أمرا لا ندحة عنه في التفسير، وهذا وفق ما تستلزمه فطرة النظم القرآني كما يسميها، كما امتاز بحس دقيق في تحقيق السياق وتمكينه من المعنى المراد، حيث وازن بين الوجوه الإعرابية وربطها بالمعنى واختار أظهرها وأكثرها اتساقا معه، ثم رجح القول الذي يراه صحيحا، كما أنه مزج بين مختلف الأسيقة المقالية والمقامية، مخضعا إياها للتعليل، وهو ما يمثل استثمارا عميقا لكافة طاقات النص.

إن إمام المفسرين يجاوز بالسياق الحقل اللغوي إلى المنطق والإعمال العقلي، بزيادته لمعان في معاني الآيات، قد تبدوا للناظر أنها ليست منها، حيث يفسر قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾¹؛ بقوله: «فتأويل الكلام وليعلم الله الذين آمنوا منكم - أيها القوم - من الذين نافقوا منكم»²، لقد أضاف الطبري جملة "من الذين نافقوا منكم" وهي ليست من منطوق الآية، فهو تأويل استدعى الإمام لإقامة الدليل عليه، فاستدرك قائلا: «فاستغنى بقوله "وليعلم الذين آمنوا منكم" عن ذكر قوله "من الذين نافقوا منكم" لدلالة الكلام عليه»³، عن أي دلالة كلام يتحدث المفسر هنا؟ أنها دلالة أول الكلام "وليعلم الله الذين آمنوا منكم". ثم

¹ الآية 140 / آل عمران

² جامع البيان 242/7.

³ نفسه، 242/7

يضيف المفسر برهانا على تأويلا بقوله «إذ كان في قوله (الذين آمنوا) تأويل "أي..." فكأنه قيل "وليعلم الله أيكم المؤمن" كما قال جل ثناؤه: "لنعلم أي الحزين"»¹.

ولعل هذه القراءة التداولية للطبري وإن أعملت العقل والرأي فهي تستند على السياق اللغوي، وعلى ما تقوله أعراف العربية وقواعدها، ومن ثمة اشتقاق للمعنى على أساس اتساق الآية الكريمة، فكأنه يثبت ما مؤداه: إن ما فهم عقلا جازلنا حذفه لغة، ولاشك أن هذا الفهم من لدن الطبري يمثل فهما تداوليا بامتياز.

إن هذا الوعي التداولي عند الطبري تمثله صورة أخرى للسياق في تفسيره، فهو يتتبع ما ورد في اللفظ من معان متعددة ثم يعقد لها شبيها في مواضع أخرى من القرآن والسنة النبوية المطهرة، إظهارا منه للمعنى الصحيح وتحريا للدقة في التأويل، فقد ذكر أن معنى دلالة "ظن" في القرآن الكريم تعني العلم أو اليقين، استنادا إلى الروايات التي أوردها عن مجاهد، من مثل ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾² بمعنى إن أيقنا أن نكاحهما على غير دلالة³، ومع هذا لا يسلم مفسرنا تسليما مطلقا بدلالة ظن اليقينية، فيرى أن معنى اليقين لا يتفق وسياق الآية الكريمة الذي يحدد معناه الدقيق، فيصرح قائلا: «وقد وجه بعض أهل التأهيل قوله: "إن ظنا" إلى أنه بمعنى "إن أيقنا" وذلك ما وجه له، لأن أحدا لا يعلم ماهو كائن إلا الله تعالى ذكره، فإذا كان ذلك كذلك فما المعنى الذي به يوقن الرجل والمرأة، أنهما إذا تراجعا أقاما حدود الله ولكن معنى ذلك كما قال تعالى ذكره "إن ظنا" بمعنى طمعا بذلك ورجواه»⁴.

حيث يشير مدلول الآية الكريمة وفق تأويل الطبري إلى أن الزوج الذي بانث منه زوجته بطلقات ثلاث، يراجعها بعد أن تتزوج من زوج ثان بنكاح جديد، إن طمعا ورجيا أن يقيما حدود الله بامتثال طاعته، وهنا لا يمكن لأحد من الزوجين أن يكون على "يقين" بما ستؤول إليه حياتهما الجديدة، ومن ثمة حمل الظن هنا على معنى

¹ نفسه، 213/7.

² الآية 230/ البقرة

³ في تفسير الآية ينظر جامع البيان، 597/4 وما يليها، وفي روايات مجاهد عن معنى ظن ينظر الجزء 2 ص: 19.

⁴ جامع البيان، 598/4، 599.

الطمع والرجاء على اليقين والعلم أوجبه سياق الآية الكريمة، أو المعنى الباطني المستنبط من ظاهر اللفظ، وهكذا يوجه الطبري معنى "ظن" في ضوء المعنى العام للآية الكريمة، نافيا للمفردة معناه الأول "اليقين".

ويرتبط السياق عند الطبري بمفهوم تداولي آخر هو التأويل، أي المعنى وإبداله التداولي، فالسياق والبرهان من أنواع القرائن التي يعتمدها المؤول التداولي، وهو رؤية معرفية، الغاية منها فهم معنى النص وإيضاح المراد من لفظه وأسلوبه.

بيد أن الغاية من استعراض رؤية الطبري له ولمعانيه، ليس إثبات مدى تداولية فكرة التأويل عند الطبري فحسب، بل استعراض طرائق تعدد مسالك البحث عن المعنى في تفسيره، حيث «تجاوز المستوى العادي لفهم المعنى القرآني المرتبط بنشأة التفسير إلى مستوى آخر موصول بمرحلة نضج فيها التفسير وخرج عن نهج البحث العفوي: Method de recherche spontanée إلى نهج البحث العالم Method de recherche savante»¹.

لقد شكل مصطلح التأويل لب التفسير ذلك أن تمسكه بهذا المصطلح له أكثر من دلالة، ولم يكن اختياره للمصطلح خبط عشواء وهو الخبير بدلالة المفردات، بل كان اصطفاً برغماتياً، بحيث جاء تفسيره بياناً لمراد النص، وبحثاً لمعناه في كل المعاني التي يطرحها اللفظ، جامعاً بين النقل والعقل واللغة والمنطق والأدب، باحثاً عن المعنى بين دلالات النص الجزئية وما يطرحه النص نفسه، ومن ثمة فتوظيفه للتأويل هو جزء من عملية هرمينوطيقية في فهم النص، بحيث تكون: «عملية فهم النص من خلال الدائرة الهرمينوطيقية ليست بالعملية السهلة، بل هي عملية معقدة ومركبة، القارئ المفسر يمكنه أن يبدأ من أي نقطة شاء، فسواء اختار البدء بالجزئيات ليصل إلى العموميات، أم العكس، وسواء اختار الانطلاق من الجانب الموضوعي التاريخي أم الجانب الذاتي النفسي فإنه في جميع الحالات سوف يدور في الدائرة التأويلية نفسها»².

إذا كان الدرس التداولي اليوم قد حدد الفعل اللغوي Acte de langage على أنه

¹ أحمدالودرني، أصول النظرية النقدية القديمة من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير نموذج الطبري، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ليبيا، ط1، 2006، ص:5

² محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات والنشر، سوريا، ط1، 2008م، ص:175.

عمل قولي أو عمل متضمن في القول أو عمل التأثير بالقول¹، فإن لفظ التأويل جاء في القرآن الكريم متعلقاً بالأفعال دون الأقوال والألفاظ والنصوص، وبأن ما ينجر عن الكلام من الفعل هو التأويل، من هذا الفهم نجد تفسير ابن جرير الطبري لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿مالم تستطع عليه صبراً﴾² بأن موسى عليه السلام استنكر ما قام به العبد الصالح الذي رافقه حين خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار دون علمه بأفعال العبد، وقد علم موسى عليه السلام حقيقة تلك "الأعمال المستكره في ظاهرها" من تحقيق معنى العدل وحفظ المال لأصحاب الجدار وإفساد الغلام لأبويه وكلها أمور غيبية تؤول إلى أهداف الأفعال وما يترتب عليها من الحكمة والعدل وهذا تأويل للأفعال وليس تأويل للنصوص والأقوال.

إن التأويل بعده نهاية القول بالفعل ملاحظ أيضاً في معرض تفسيره لقوله تعالى في سورة يوسف: "نبأنا بتأويله" وقوله تعالى: « هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً»³ حيث يقول الطبري: « وقوله " يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً"، يقول جل ثناؤه: قال يوسف لأبيه: يا أبت، هذا السجود الذي سجدت أنت وأمي وإخوتي لي = "تأويل رؤياي من قبل" يقول: ما آلت إليه رؤياي التي كنت رأيتها وهي رؤياه التي كان رآها قبل صنيع إخوته به ما صنعوا: أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدون = ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾، يقول: قد حققها ربي، لمجيء تأويلها على الصحة»⁴، فنهاية الرؤيا التي هي كلام قيل في وقت ما، بفعل مطابق لهذا الكلام هو التأويل الصحيح لأن الله حقق تأويل هذا الكلام على الصحة فعلاً.

إنّ الامتداد الطويل لمدونة البحث على مدار خمسة عشر جزءاً (تحقيق شاکر، ناهيك عن تحقيق التركي) من جهة، وموسوعية تفسير الطبري من جهة أخرى، يضاعف من الصعوبات التي تواجه الباحث، ويضعه أمام اختبار صعب يتمثل في توظيف التداولية مقارنة للمتن القرآني الضخم الذي تصعب الإحاطة التامة به. يضاف إلى هذا قلة التوثيق المتخصص والنوعي الذي يخدم الموضوع بشكل دقيق، حيث تقل المراجع

¹ ينظر آن رويول جاك موشلار التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة، لبنان، ط1، 2003، ص: 267.

² الآية 78/الكهف

³ الآية 100/يوسف

⁴ جامع البيان، 171/16.

التي عالجت مدونة الطبري من وجهة نظر تحليل الخطاب، وتكثر المراجع التي قرأته في النحو والبلاغة والفقه وعلم الحديث وغيرها.

خاتمة:

وقد وصل البحث إلى استخلاص جملة من النتائج الآتية أهمها:

– تناول الطبري في موسوعته التفسيرية بيان معنى الآيات القرآنية، عن طريق استعماله آليات تداولية تتعلق بالجانب اللغوي كالسياق اللغوي وغيرها، وآليات ما وراء نصية كالحجاج، أي إنه انطلق من النص ليدفع بالحجة العقديّة والمذهبية للبروز، كما لم يغفل شرح وبيان بعض المداخل، ربطاً بما هو موجود في آيات لها السياق نفسه.

– إن الوعي الخطابي في تأليف الطبري، يمثل رؤية منهجية لتفسير القرآن الكريم، يرتبط بالفلسفة العامة، والطريقة الشاملة التي ينظر بها أبو جعفر من خلال ثقافته العامة، وشخصيته الفكرية إلى الكون والإنسان والحياة والمجتمع، ومن ثمة يمكن القول إن مفهوم القصدية كآلية تداولية طبقها الطبري في خطابه المفسر للنص القرآني رؤية بيانية تتفاعل وتتداخل في تكوين مفهومها عناصر لغوية ودينية ومذهبية.

– لعل الذي مكن الطبري من الوقوف على دقائق التفسير هو توظيفه لآلية السياق في تفسير آيات القرآن الكريم؛ وقد عد القرآن الكريم بمثابة السورة الواحدة، يفسر بعضه بعضاً، فلم يكتف الطبري بصورة واحدة للسياق في مفهومه التداولي وفي تقسيمه اللساني المعروف، بل تعدد صور السياق عنده؛ فحيناً يكون سياقاً لغوياً، وأخرى غير لغوي، أو قد يكون مزدوجاً، هادفاً بذلك إلى تبيان المعنى المراد من الآية لا بمجرد بيان معاني الألفاظ المشكلة لها أو التي تحمل دلالات متعددة فحسب، بل إن المعنى يحدده السياق بقرائنه اللفظية والمعنوية.

– إن ما يمنح لخطاب الطبري نجاعته الكاملة هو توظيفه للحجاج آلية تداولية؛ فقد بنى الحجج على ضوء ما تمليه تداولية الخطاب، بين حجج نصية وأخرى عقلية، كما يستعمل الطبري في سياق إقناع المتلقي بنظام حججه مختلف السبل؛ من عرض وتفريع وتفصيل، وموازنة ومقابلة، وهذا لغرض إحكام القبضة على من يؤيده ويعارضه، فهو يضرب بأسلوبه نمطا من المصالحة التي تتحقق بالبرهنة، وبمختلف أشكال الخطاب، بحثاً عن توسيع الخطاب وانتشاره وفق ما تقتضيه السنن والقواعد التي أجازها العرف وأقامها قانونها التداولي.

– استعمل الطبري عدة آليات تتصل بالإستراتيجية التداولية، ومنها الافتراضات المسبقة، والأقوال المضمرة، والأفعال الكلامية، وما يتصل بالحجاج، والاستشهاد بغير القرآن فضلا عن مقارنته القرآن بالقرآن، واستعمل ما يقع في دائرة علوم القرآن أو ما يمكن أن نسميه في بعض مناحيه بسياق الموقف، من مثل معرفة أسباب النزول ومعرفة المكي والمدني، ثم ما يمكن أن يتوصل من مظاهر الإعجاز، باعتبار التعجيز آلية تختص بالخطاب القرآني دون غيره من الخطابات.

المصادر والمراجع:

المصادر:

- الكريم برواية ورش عن نافع

- الطبري أبو جعفر محمد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة مصر، ط 2 (د ت)

المراجع:

1. ابن تيمية، مقدمة في التفسير، مطابع الرياض، السعودية، ط 1، 1381 هـ.
2. أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998.
3. أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، مجلة فكر و نقد، العدد 61.
4. أحمدالوديني، أصول النظرية النقدية القديمة من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير نموذج الطبري، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ليبيا، ط1، 2006.
5. آن روبرول جاك موشلار التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة، لبنان، ط1، 2003.
6. ومنقش الرحوني، تداولية الخطاب التفسيري، ابن جرير الطبري أمودجا، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم، جامعة سطيف 2، 2015.
7. جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع – الفلسفة في العالم الواقعي. ت: سعيد الغاني، منشورات الاختلاف. الجزائر، 2006.
8. حسين خمري، نظرية النص، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2007م.
9. رجاء بنت محمد عودة، الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم، مكتبة العكيان، ط1، 2003.
10. سيزا قاسم، توالد النصوص وإشباع الدلالة تطبيقا على تفسير القرآن، ضمن: الهرمينوطيقا والتأويل، مجموعة مؤلفين، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط2، 1993م.
11. عبد الهادي ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط 1، 2004م.

12. محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2013.
13. محمد بن أحمد جملان، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات والنشر، سوريا، ط1، 2008م.
14. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، 2012.
15. يحي محمد، منطق فهم النص دراسة منطقيّة تعنى ببحث آليات فهم النص الديني وقبلياته، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010.